نَظْرَة

اِضطرتْني الدَّقَّاتُ العنيفةُ ، المتكررةُ على الباب أَنْ أهبَّ واقفاً فَزِعَاً من مرقدي . راحتْ دقاتُ قلبي تَخْفِقُ بعنفٍ مضادٍّ كاد أنْ يصيبَني باختناقٍ فرحتُ أتطوَّحُ على إثره وأنا أخطو يمينا ويسارا بينما لم أستطعِ التحكُّمَ في قطراتِ البَوْلِ التي تسرَّبَتْ وبلَّلت ملابسي . هرعتُ إلى الباب مبلَّلاً بينما أحاولُ أَنْ أبدو متماسكاً ، و حينَ فتحتُ وجدتُ رجلاً لا أعرفُهُ ففغرتُ فاهيَ دَهِشَةً وأطرقتُ خِزياً لا أدرى لِمَ..؟؟ دخل عنوةً وقد أزاحني جانباً وغير منتظرٍ لردّي راح يطلقُ كلماتٍ أشبه بالرَّصَاصِ في وجهي : أمازلتَ موجوداً بالمكان..؟ ألَا تفهمُ.. ؟؟ لقد أعطيناك فُرَصَاً متتاليةً ولَمْ تَرتدعْ ألا تفهمُ..؟؟ رحتُ أنظر إليه مذهولاً أودُّ الاستفسارَ منه عمَّا يتحدث..! وأيَّ فرصةٍ تلك التي أعطانيها.. فلو كان حقاً كما يدَّعي لكنتُ فرحتُ به كثيراً وعانقته بلهفة.. ؟؟ ..

لكنَّه أكملَ لا مباليا باقي ثماني وأربعون ساعةً بعدها سأقوم بإبلاغ الشرطة عنكَ لقد تركتُكَ لأجلِ خاطر أمِّكَ الطيبة ، وإخوتك» المحترمين» رددتُ : (ل ل ل ل ل ك ك ك ن ن ن) فرفعَ مرفقه مشيراً في وجهي) : (أنت لسه عاوز تتكلم الصبر من عندك يارب) أغلقتُ الباب ، تذكرتُ أنهم قد قاموا ببيع البيت دون سؤالي أو حتى إعلامي ، كنا خمسةَ أولادٍ وثلاث بناتٍ وأمي اتفقوا جميعا فيما بينهم وتركوني أواجه مصيري بمفردي تماما مثلما كانوا يتفقون فيما بينهم بنظرات عيونهم ، بضحكاتِ شفاهِهم ، وإيماءات أيديهم بينما يتركوني في حَيْرتي تائهاً لا أحد منهم ينظر إليَّ أو يبادلني نظرةً بنظرةٍ ، كانت عيوني فارغةً تماما من دفءِ وجودِهِم ،كلامِهم وربَّما حتى من وَهَجِ أفكارِهم عندما قلتُ» لا «» لن أبيع» ..!

باعوا البيت وأخبروني أنهم قد قاموا بتزوير توقيعي وأودعوا نصيبي من المال في حسابٍ باسمي في أحد البنوك حاولت أن أسالهم لماذا نبيع البيت وكل واحد يبتاع لنفسه شقة في مكان اخر ويعيش وسط غرباء..؟ ، لماذا لا نبقي على مكانٍ يصلنا ببعضٍ وذكريات تُهَدِّئُ من رَوْع اغترابنا لكنَّهم لم يلتفتوا مُطْلَقاً لما أقولُ وولَّوا لا مبالين عني حتى أمي لم تُلْقِ بالاً كعادتها لوجهةِ نظري بل ابتسمتْ في وجهِ كلِّ واحدٍ منهم قائلةً: أما أنا فسأكون الضيفَ العزيزَ عليكم سأجلسُ عند كل واحدٍ منكم بالتناوبِ شهرين ، وذكرتهم جميعا واحداً واحداً واسماً اسماً إلا أنا

وعندما نبهتُها لذلك لم تُكَلِفْ عينيها عناءَ إلقاء نظرةٍ لي بل غمغمتْ قائلةً : وأنت أيضاً ، وأنت أيضاً وبدلاً من أحاديثك الكثيرة انتبه للأطباق والملاعق التي كادت أن تسقط من يدكَ عندما استفسرتُ منهم عن (ذذذذ ك ك ك ك رر ري ي ياا ت ت ت ك ك ك م م) أجابوني لن نأخذ معنا شيئاً ، سنشتري أشياءَ جديدة تماماً لشققنا الجديدةِ ..!!

كان عليَّ أن أجمع كلَّ ما أريد قبل أَنْ أغادرَ، لا أدري إلى أين أغادر..؟؟

لكني سأغادر بيتي... تماما مثلما غادرتُ مدرستي لأنني حين قلتُ للمدرسة أنا الذي أجبتُ السؤال بالطريقة الصحيحة وليس عمرو ابن صديقتها اتهمتني بالكذب، وهددتني بقطع لساني ..!

رحتُ أجمع ما تبقى لي، ولم يكنْ ما تبقي لي كثيراً . (هارمونيكا) بلونَيْنِ فِضِيّ وأخضر قاتم، شهادات رسوبي المتكررة وتلك الدوائرُ الحمراءُ المتفرقةُ و التي تشبهُ عيونَ الشيطان ، قلم رصاص قديم ، صورة لي مع بعض أصحابي في المدرسة الابتدائية وما هذا الذي احتفظ به في قعر الكرتون المتهالك : يااااه يا لَفرحتي العظيمةَ لقد كان (تلسكوبا قديما أذكر أنه كان حلما بعيدَ المنال ظللت أقول لأبي : أحلم أن يكون معي(ت ت ت ل ل ل س ك و با) أود أن أرى به النجوم البعيدة ويوم أن اشتراه أبي وعاد به إلى البيت فرحت كثيراً وركضتُ صوبَه لكنهُ أشاح بيده مولياً عني : احترس كدتَ أن تصيب ملابسي بالاتساخ من جراء الطين والخراء العالق بحذائك ثم أعطى التلسكوب لأخي الأصغر المدلَّلِ كم أحسستُ وقتَهَا بافتقادي الشديدِ لمكانٍ أُثَبِّتُ فيه قدمَيَّ فلا أنا بالولد البِكري العاقلِ ولا أنا بالصغيرِ بالمدلَّلِ ، فقط كنتُ جملة صغيرةً بين قوسين لا محل لها من الإعراب ويمكنُ القفزُ عليها بسهولةٍ أو إعطائها صفةً وتمييزاً بتلك التهتهة التي وسمتني و التي أوقفت تدفق كلماتي وانسياباتها تركني أبي في حَيْرةٍ وبكاءٍ عنيفينِ غيرَ مُكْتَرِثٍ لما كان يشبه الفيضانَ الذي يهدرُ بداخلي وراح يفكُّ التلسكوبَ من أغلفته القطيفيَّة ويعطيه لأخي . كنتُ أسأل نفسي دائما: لماذا لا أموتُ لكي يأتوا ويلقون نظرةً عليَّ ربَّما نظرةً أخيرةً لكنها حانيةٌ واحتفظ أخي بالتلسكوب لا يسمح لي بأن آخذه إلا لثوان فقط أُلقي منه نظرةً على كل الموجوداتِ ذات الحدودِ الغائمة والأسطح المقعَّرة لكنِّي لم أستسلم فقد كنت أمد يدي و آخذه خلسةً دون أن يشعر أخي وأنظر خلاله فأرى النجومَ قريبةً ،جميلةً ومشعَّةً ،كنتُ أرى البحرَ أزرقاً واضحاً غيرزرقتِهِ الداكنةِ الطبيعيةِ ،كنتُ أرى هناك صائدي السَّمكَ يتبادلون النظراتِ معي عبر العدسةِ ويشيرون بأيدهم لي ضاحكين ..!

اليوم وأنا أُمْسِكُ (التلسكوب) من جديدٍ أحسست أنني سأعودُ مرةً أخرى إلى ذلك الصياد الذي قذفَ لي من قاربِهِ وردةً حمراءَ يانعة أمسكتُ (التلسكوب) ومسحت ما كان عالقاً به من التراب بخِرقَةٍ من قِطَعِ المطبخ والتي كانت أمي تقصُّها من ملابسي البالية رحتُ أمسح عدستَه وأنظر فبانتْ لي الأشياءُ جليةً من جديد فازددتُ غبطةً وسعادةً وصعدتُ إلى السطح. كانت أمي قد تخلَّصَتْ من كلّ ما كان على السطح من (برطمانات) المربى ، وأطباق الغسيل البلاستيكية ومن لوحاتي الممتلئة بالفحم ! رحتُ أُلقي نظرةً على الكون ، أجول في الكون بحركةٍ دائريَّةٍ لا يوقفها خطٌّ قطعيّ ، أُلقي نظرةً على الغسيلِ المنشورِ في كلّ الأسطح حولي ، والبيوتِ التي تصلُ أدوارُها إلى الطوابق العليا ، ولافتات الدعايةِ عن الساعاتِ ، والأطعمةِ ، وأطباقِ القنواتِ الفضائيةِ وملابس النساءِ الداخليَّةِ كنتُ ألتفتُ يمينا ويسارا عبر العدسة حتى توقَّفَتْ نظرتي تماما على امرأةٍ بعيدةٍ رأيتُها بوضوح عبر شُبَّاكِ مطبخِهَا ، كانت ترتدي قميصاً عارياً بحمَّالاتٍ على كتفيهَا ، ويظهر أيضا من تحته حمالات المَشَدِّ بلونٍ أكثر تناقضا كانت تضحكُ كثيراً وعندما تقابلَتْ نظراتُنا عبر العدسةِ ابتسمتْ بدلالٍ دون تحفظٍ وراحت تشيرُ لي بتفاحةٍ كانت بيديها تقضمُ منها وتضحكُ فرحتُ أضحكُ مثلها ثم أدرتُ محركَ العدسةِ لتقتربَ منها فرأيتُ ولَدَيْنِ بجانبها كانوا يشبهانها كثيرا سوى أن الأخير هو من احتفظ لنفسه بغمازتها راحتْ تمسك بيد كل واحد وتجعله يشير لي وكأنما كانت تعلم جيدا أنني أتتبعها ولم تمضِ لحظاتٌ وكنتُ قد تعبت كثيرا من وقفتي إلا وقد وجدتُها تبكي بحرقةٍ تلطم وجهَهَا وتشدُّ في شعرها فقد كان هناك رجلٌ يصيح فيها ويمدُّ يدَهُ إليها مهدِّداً انتابني الذعرُ وحاولتُ التملُّصَ منها لكنَّ منظرَهَا ألجَّ عليَّ كثيرا فرجعتُ أُلقي نظرةً أخرى فوجدتُ الرجلَ نفسَه ووجدتُها نفسَها سوى أنها قد وضعتْ على كتفَيْهَا العاريتَيْنِ شالاً بلونٍ أحمرَ قانٍ كنتُ أود أنْ أناديَ عليها بأي اسمٍ -لا يَهُمُّ- فقط كلُّ ما أريده أن أنبهها ألا تخاف ولا ترتبك فأنا أقفُ بجانبها لكن بكاءها ازداد وأصبحتُ بوضوحٍ أسمعُ طَنِينَهُ في أذني كنتُ أعرف البيتَ الذي تقطنُ فيه من شكل الرسوماتِ الموجودةِ على جدران السطح فتركتُ (التلسكوب) مسرعا وقفزتُ الأسطحَ كلَّها من سطحٍ إلى سطحٍ كانت خطواتي تنسابُ برفقٍ وترتقي دونما تردُّدٍ ولا تشتكي من خوفٍ أو ارتباكٍ ككلماتي.. أخيراً وصلتُ إلى سطح البيت الذي تقطنُ فيه ، نزلتُ السلالم أعدو ، ثم وجدتُ باب شقتها مفتوحاً فدخلتُ مسرعا كان صوتُ التلفاز عالياً بينما الولدين أحدهما يأكل (مكرونة بالصلصلة) و الآخر يقومُ بتحريكِ ذراع» البلاي ستيشن « رحتُ أتأملهم :كم كانوا في منتهى الروعة

والجمال والهدوء أبرياء لا يعرفون من يهدِّدُهم محاولاً النيل منهم..!!
أدركت جيدا أنني لابد لي من حمايتهم رحتُ أبحث عن الأم في كافة أرجاء الشقة ، وجدتُها في حجرةِ نومِهَا نتفُ شعرَ حاجبيها بينما الرجل الذي كان يهدِّدُها شبهَ عاريٍ، مستغرقا تماما في النوم وقفتُ أمامها وقد ازداد خوفي عليها وعلى الطفلين وحين رأتني ارتجفتْ هلعاً و سقطت منها المرآةُ مهشمةً على الأرض فأومأتُ لها (ل ل ل ا لا ت ت خ ا في) وفي اللحظة التي حاولتْ فيها الصراخَ أمسكتُ بها وكممتُ فمَهَا ثم جررتُها بقوةٍ إلى المطبخ ،التقطتُ السكينَ ورحتُ أطعنها عدَّةَ طعناتٍ في ثديها وبطنها وكتفها وساقيها حتى صمتت تماماً فتركتُها وعدت إلى الطفلين أربتُ عليهما قائلاً: لا تخافا الرجلُ الشِّرِّيرُ لن يهدِّدَكما مرةً أخرى كان صراخُهما قد بدأ يعلو ويعلو ولم أستطعْ إسكاتَهما فما كان مني إلا أنْ قمتُ بطعن الطفلين عدداً لا يُحصى من الطعناتِ حتى سكتا تماماً . لملمتُ كلَّ الطعام المنسكب واللُّعَبِ المتناثرةِ فربما حين يأتي ليهدِّدَهُما مرةً أخرى يأخذُ اللُّعَبَ معه ليغيظَهما
رجعتُ إلى المرأة كانت قد اطمأنتْ تماماً وهدأَتْ. فغطيتُها بالشَّال وتركتُها في مكانها ، بينما الرجلُ الراقدُ في الفراش مازال نائماً وقد تزايدَ شخيرُهُ ، خرجتُ وقد أغلقتُ البابَ ورائي جيداً وتأكدتُ من إحكام غلقِهِ تحسُّبا لو عاد الرجلُ ليهدِّدَها مرة أخرى فيجد الباب مغلقاً ، ثم رجعتُ إلى بيتي أُكمل جمعَ الحاجياتِ لأغادرَ مسرعا قبل أن يأتيَ صاحبُ البيت الجديد فيبصقَ على وجهي لتأخُّري في الخروج وتجاوزي المهلةَ المحدَّدَةَ ....!!!